عنوان المقال

اللغة الصوفية وانزياح الدلالة

د .كواري مبروك أستاذ مساعد أ

بقسم اللغة العربية وآدابها جامعة بشار

لكل جماعة لغة خاصة تعبر عن حاجاتهم الوجدانية والفكرية . والمتصوفة فئة اجتماعية عرفتها الحضارات عبر الحقب التاريخية المتعاقبة لها مقوماتها ومصوغاتها الفكرية والدينية . التصوف اتجاه فلسفي فكري أفرز رؤى متباينة لدى المتصوفة في تعاملهم مع الوقائع التي تعترضهم في حياتهم . ولكي يضمنوا تميزهم وانسجامهم ، أنتجوا لغة كانت ، ولا تزال ظاهرة فريدة في التواصل الاجتماعي .

الصوفي إنسان يبحث عن الحقيقة . الحقيقة الدينية الفلسفية التي توحد بين الذات الإلهية والعلة الأولى والخير الأسمى[1] . وبحثه الدائم عن الحقيقة جعله ، يرفض هذا العالم لزيفه ونسبتيه . وقد ترتب عن هذا اعتزاله لنظام المجتمع الذي يعيش فيه . ومن هنا بدأت رحلة الاغتراب ، العذاب النفي ، والنفور .لأن (الصوفي يسعى إلى القداسة ، وإلى إشباع هذا الحنين الوجودي عبر اللغة القادرة على تجسيد هذا العالم الإلهي ، والتي هي نوع من الخلق الفني، يحاكي ما صنعه الله في المرة الأولى حين خلق العالم . يتحقق به وجود الصوفي ، عندما يحيا به وفيه)[2] عند وصوله مرحلة التجلي ، التي ينكشف فيها للقلوب ما خفي من أنوار الغيوب[3] .

التصوف طريقة سلوكية ، قوامها التقشف والزهد ؛ بالخلوة والصوم والصحو والذكر والتحلي بالفضائل ؛ لتزكو النفس ، وتسمو الروح ، لبلوغ الغاية الكبرى البعيدة المتجلية في الاتصال بالذات الإلهية. (الصلة التي تحدد العلاقة بين الله والإنسان حتى تصل به إلى حد الفناء ، والبقاء بعد الفناء)[4] .؟ لأن الصوفي يريد لنفسه شيئا آخر ، غير الذي يجد نفسه فيه . يريد أن يوجد على صعيد آخر ، إنه يصنع نفسه باقترابه من النموذج الإلهي ، وهذا جوهر الصراع داخل المتصوف بين المألوف الدنيوي - صيرورة الزمن المنتهي إلى زوال - وبين الخاص المقدس - الزمن والمكان اللامنتهي - بين الوجود الأرضي ، والوجود المطلق ، بين البشري والإلهي ، بين الحياة والموت[5]

التجربة الواقعية/ التجربة الشعرية/التجربة الصوفية :

إن الحديث عن التجربة الإنسانية والإبداع ، تدعو إلى التأمل في تركيبة الإنسان الوجدانية والعقلية والبيولوجية لفهمها ، وكشف أغوارها . نلتمسها في إحدى مناجاة الحلاج وقت الصلب . وقت الخوف والهلع ، وضعف النفس البشرية في تحمل

الموت وانتظاره ؟ , يوم مقتله ، بينما كان الحلاجُ مشدوداً على الصليب الخشبي وقبيل حَزّ رقبته ، نظر إلى السماء مناجياً ربه قائلاً :

هَؤلاءَ عِبَادُكَ

قَدْ اجْتَمَعُوا لِقَتْلِي تَعَصُّباً لدينكَ

وتَقرُّباً إلَيْكَ

فاغْفِرْ لَهُمْ !

فإنكَ لوْ كشَفْتَ لهُمْ مَا كَشَفْتَ لي

لما فعَلُوا ما فعلُوا

ولوْ سَتَرْتَ عَنِّي مَا سَتَرْتَ عَنْهُمْ

لما لقِيتُ مَا لقِيتُ

فلكَ التَّقديرُ فيما تَفْعَلُ

ولكَ التَّقديرُ فيما تُرِيدُ[6] .

الإنسان العادي يشعر بالتناقض بين المنطوق وحال الناطق . فكيف يفكر هذا الرجل في خصومه الذين هم مقدمون على إعدامه بهذه الروح الحانية ، وهذا التسامح الغريب ، وهذا التدلل ، استسلاماً لقضاء الله وقدره . في هذه اللحظة الفاجعة يتكلم مطمئناً ، لأن ما يقدمون عليه يتقبله بقلب خاشع ، ونفس هادئة غير جزعة من الموت . أي إنسان هذا...؟ وهنا يتجلى الفرق في إدراك كنه الحياة بين المتصوفة وغيرهم ؟

يعيش الإنسان تجارب متنوعة في حياته، طوال تنشئته الاجتماعية. تشكل وجدانه وتصقل مواهبه واستعداداته وتتوسع مداركه العقلية. وبهذا ينسجم مع مجتمعه، ويعيش حياة عادية. لكن المبدعين لهم نزعاتهم الخاصة ونوازغهم في التعامل مع الواقع ، والوقائع . فإحساسهم المرهف، وحدة الذكاء، وميولهم الفطرية، والوجدانية تجعلهم متميزين في التعبير عن تجاربهم ، وفي تعاملهم مع الآخر. وفي فهم مكونات الواقع الاجتماعي . فهم لا يعبرون إلا بعد استبطان الواقع الذي يعيشونه ، ومن خلال تفاعلهم مع هذا الواقع تكون الاستجابة . لأن المبدع إنسان موهوب له استعداد خاص ، وقدرات عقلية تمكنه من الملاحظة الدقيقة لصغائر الأشياء ، والتعبير عنها بلغة فنية راقية . والمتصفح لتاريخ الأدب العربي ، يقف على ظاهرة الإبداع في علاقتها بالواقع والتحولات الاجتماعية ، والهزات الثقافية التي اعترته عبر الحقب التاريخية المتعاقبة.لأن التجربة التي تعتري المبدعين بعد

الانقلابات الثقافية والسياسية تحدث نوعا من القطيعة الإبستيمية ، تجعلهم لا يتكلمون إلا بعد استبطان هذا التجربة بمفاهيمها ، فينطلق عقال العقل ، ليتكلموا ، وينتجوا لغة وفكراً جديداً. يتكلمون في غفلة من الرقيب. والقضية نفسها تنبسط على المتصوفة الذين يدخلون تجربة جديدة ، تؤهلهم لإنتاج معرفة ولغة خاصة، هي إفراز التجربة التي تجمع بين العلم والإيمان والواقع . يقول الحلاج :

للعلم أهلٌ وللإيمان ترتيبُ وللعلوم وأهليها تجاريبُ

الصوفي يلزم نفسه برياضات لتزكية الروح، وترقية الجسد. فالصمت والجوع والسهر والخلوة ...رياضة يمارس بها تجربته في رحلته نحو الصفاء الذهني . لتخليص الروح والجسد من أدران، ووحل الأرض، فتصفو الذات من شوائب التراب، وترقى إلى ملكوت السماء. في هذه الرحلة الشاقة المضنية، تتغير مجازاته التي بها يتفاعل مع واقعه, وبها يدرك مجريات الحياة. لأن تَغير مفاهيم الإنسان للحقيقة والوجود ، والذات والآخر ، والعالم والتجربة ، واللغة والعقل ، يتم عبر تغيير مجازاته التي بها يتمثل هذه المفاهيم[7]. ومن خلالها يستطيع القيام بكل العمليات العقلية ، يتخيل ، يتوقع ، يستنتج ، يقرر ، يفهم ، يفسر ويؤول ، يقتنع ويقنع ، يبرهن ويحاجج .

التجربة الصوفية (هي إعادة قراءة للمفاهيم السائدة ، وتحاور معها .حالة قائمة على الصدام مع المسلمات والتواصل مع المطلق بكل أشكاله ، للوصول إلى جوهر العلاقات في الفن والإنسان والوجود)[8] . تدفع السالك إلى الانتقال من حال إلى حال ، من موقف إلى آخر ، ومن رؤية للكون إلى رؤية أخرى . ويكون المجال التعبيري أو النظري عنده وحده مجال الأخذ والرد ، القبول و الرفض . البوح بالتجربة الروحية ، ومواجدها التي تعجز العبارة عن الوفاء بها[9]. هذا التحول الذي طال المستويات الوجدانية والعقلية والجسدية ، يضع السالك في موقع جديد ، ورؤية جديدة في تعالمه مع مجريات الواقع ، الذي يعيش فيه . فتتغير مجازاته ، ويصبح له منطق خاص مغاير لبيئته وثقافته التي نشأ فيها، وشكلت جهازه المفاهيمي، فتصبح له تعابير خاصة، ولغة مغايرة , لا يفهمها إلا الصفوة من المفكرين. هي لغة عصية عن فهم العامة والخاصة. هي محصلة التغيير الجسدي والروحي والعقلي، الذي أصبح حال السالك نتيجة المجاهدات التي صقلت الروح من أدران الماديات،وسمت بها إلى مجال الروحانيات, عالم الحدس واللامنطق, عالم الذوق . فيعيش السالك في فضاء له منطقه الخاص في التحليل والتعليل والتأويل والبرهان والبوح... هي تجربة مرتبطة بالجمال، والانفلات من قيود العقلانية، وقيود المألوف في التعامل مع الأشياء[10] . فينتج لغة هاربة متوثبة متملصة من كتلتها المعنوية، تبحث عن أفق دلالي يحتويها، تنبثق منه إوالية دلالية متراكمة متجهة نحو أفاق الترميز، الذي يصبغها بالضبابية والغموض. هذه اللغة هي ملاذ المتصوفة؛ يعبرون بها عن مدركاتهم بالبصيرة؛ فتصبح لغة متجاوزة للمألوف،خارقة للعادة،والدليل المنطقي الحجاجي، البرهاني السجالي. لغة ذوقية عرفانية، تحمل خلف معانيها المعجمية

أسراراً، تحتاج إلى كشف، وتأويل يتجلى في الإشراقة التي تنقدح في القلب مرمزة، (هذا الرمز لا يوجد في التركيب، بل يوجد في الكلمة المفردة، بل يوجد في الحرف الواحد)[11]. وأن خطابها خارج المعايير، وإن بدا أنه داخلها. هذا الوضع أفرز قاموساً لغوياً خاصاً رافق هذا التيار منذ ظهوره ، بدأ يطفو مع شطحات أبي زيد البسطامي المتوفى سنة 261هـ. قاموس لغته غريبة، ظاهرها مستشنع وباطنها مستقيم[12].

إن التجربة الصوفية أربكت المعجم اللغوي العربي مبكراً ، لما شحنت الدوال بمدلولات جديدة ، لم يعهدها المؤولون لكلام العرب . هذه التجربة اتجاه مبكر، سابق لعصره من المتصوفة في الثقافة العربية ، التي أفرزت إشكالية علاقة الدال بالمدلول ، وانزلاق الدلالة . التي لا تزال محط اهتمام فكر ما بعد الحداثة ؟

لغة الخطاب / النص الصوفي لا تنسج من إجهاد عقلاني، وتقنية إنشائية مسبقة، بل هي نتاج مجاهدة واستعداد روحي، ومنظور عقلي. هذا ما يمكننا من فهم التجربة الصوفية. لأن الكلمة أو الشيء عند المتصوفة (لا يماثلان الدال بالمدلول ، بل هما يستمدان معناهما من خلال التمثيل الثقافي)[13] . الذي يطابق الدال والمدلول بالكلمة والجملة. والإعراب عن التجربة الصوفية متجل في لغة الخطاب / النص ، لأن التعبير عنها هنا هو نقل التجربة من عالمها الذاتي؛ الحسي الباطني؛ إلى التمثيل اللغوي (التعبيري) . أي تماثل الذات مع اللغة، والحس مع التعبير, ومطابقة التجربة الصوفية للتعبير عنها، هو الذي أنشأ لغة خاصة بالمتصوفة. هذه اللغة جاءت لتمثيل ، واحتواء هذه التجربة في إطار لغوي. فلو كانت التجربة الصوفية خارج نطاق التعبير عنها ، لما تحققت إمكانية القراءة والتواصل . فلا تتأكد الكتابة إلا لأنها تحمل في طياتها إمكانية القراءة [14] والتواصل . من هنا كانت ردود الفعل الدينية، تركز على هذا المحور أكثر من التركيز على التجربة الصوفية. وانصبت الردود والانتقادات التي وجهت للمتصوفة بالتركيز على غموض رموز اللغة الصوفية (اللغة، الأسلوب، الغموض، الترميز) ، لأن اللغة التي يمارسها المتصوفة نطقاً وكتابة وإيماءً، تختلف عن لغة وكتابات غيرهم. وليتم التفاهم، وتبادل الدلالة يجب أن يكون المعجم اللغوي واحد، منبثق من تمثيل ثقافي موحد. هنا تكمن مشكلة التفاهم بين المتصوفة وغيرهم ، لأن المتصوف يمتح دلالات مفرداته من أعماق التجربة الصوفية، التي يعيشها. وهنا تولد الفجوة! ولا يتم التواصل... ؟

اللغة الصوفية / الإيحاء والتقرير:[15]

اللغة وسيلة تواصل وتبادل التأثير، من خصائصها أنها مشبعة بمقاصد المتكلمين. تحمل أكثر من وجه دلالي لأن اللغات لا تتكلم، بل يتكلم الناس[16] الذين يشحنون رموزها، وإشاراتها بمفاهيم تتناسب وتجاربهم ، ومعارفهم وميولاتهم الوجدانية، ونزوعهم الروحي. فهي تستعمل للتواصل، وتبادل التأثير . إما باعتمادها المعنى التقريري المعجمي ؛ الدلالة الأولى للإشارة اللغوية ؛ أو باعتماد المعنى

الإيحائي، المعني الذي تشحن به اللفظة في سياق الاستعمال من معاني وجدانية فكرية. وهو المعنى الزائد عن المعنى المركزي. هو أصداء العلامات الانفعالية والعقلية التي تلوح في عقل المخاطب"الكاتب" أو السامع "القارئ". هذا المستوى في التعامل مع اللغة، يختلف باختلاف الأفراد. والشحن العاطفي الفكري للكلمة له وظائف التأثير في المواقف، والتوجهات الوجدانية والعقلية. فإذا كانت إيحاءات اللغة في التجربة الواقعية، والشعرية معقولة، ينسجم معها العقل في اكتشاف دلالاتها، رغم اتسامها بالغرابة والغموض أحياناً. فإن دوال اللغة في التجربة الصوفية، لا تشير إلى مدلولاتها الإيحائية الممكن الوقوف عليها، عبر آليات التأويل، لأنها تحيل على إيماءات وإيحاءات عجيبة غريبة، تشبع بها الدلائل اللغوية . فتتجه أكثر نحو اللامنطق واللامعقول . في هذا الحد تفارق الدوال مدلولاتها، وتغوص في إيماءات خاصة غامضة ، عصية عن الإدراك في كنهها، وفي نسقها التركيبي اللغوي. هي لغة ظاهرها وسيلة للتواصل، ولكنها عاجزة عن تحقيقه[17]. لأن التجربة الصوفية لا تعتمد اللغة العادية، هي تجربة خاصة، تفرز لغة رمزية، توائم ما تعبر عنه من أحوال نفسية ووجودية[18]، ألجأتهم إليها الحاجة، ليعبروا عن معان، ومشاهد، وإحساسات، لا عهد للغة بها [19] . لأن شعورهم بعجز اللغة كان ملازما للمتصوفة جميعا[20]

تتشكل لغة الخطاب الصوفي بعد أن يجتاز سالك هذا الدرب جملة من التمارين الروحية، والجسدية التي تؤدي إلى تكون الذوق الصوفي. وهو مصطلح – أي الذوق - خاص بهم لا ينصاع لمنطق العلم، يدرجه المتصوفة ضمن علم الأحوال، الذي يعني المعرفة، الإدراك، والفهم الحدسي. (هو نور عرفاني يقذفه الحق في قلوب أوليائه)[21]. والذوق القاسم المشترك بين المتصوفة على اختلاف مشاربهم ورؤاهم. وهو أيضاً القاسم المشترك في تكوين اللغة ، وبالنتيجة هو الفاصل بين لغة المتصوفة، واللغات الأخرى (أدبية فلسفية ، دينية ، سياسية...). ولإدراك مرامي اللغة الصوفية، على القارئ فهم هذه المسألة، ومحاولة تمثل هذه التجربة، والولوج إليها، ليكتشف المحجوب والغامض. ومعرفة كنه مرادهم، وأين ينتقل من حد إلى آخر .

إن مفهوم الحد في التجربة الصوفية، يتسم بالازدواجية. إنه يفرق ويوحد. ويسم اللغة بالازدواجية والتعدد[22] . الحد فيها فضاء داخلي، بينما في التجربة الشعرية فضاء خارجي. ولكل لغته ومجازاته. الفضاء الدلالي يشكل حدا فاصلاً بين اللغات المتعددة من لغة واحدة[23]. فالإشارة"الكلمة" تتشظى بين دلالات التقرير والإيحاء ، هذا الأخير ينزلق إلى حقول دلالية شديدة الخصوصية عند المتصوفة. فكل ثقافة لها طريقتها الخاصة التي تزول بها التقسيم الإثنائي، الذي يتوقف على نماذجها المعينة. هذا الحد الذي يموقع المتقابلين بين مفهوم ما هو لي، و ما هو لك، الذي يفصل بين الأحياء والأموات، والداخل والخارج ، والهنا و الهناك، والأنا والأنت[24]...لحظة اندحار اللغة وخذلانها أمام الواقع، لحظة تألق انتصارها وتحديها له معاً ، لحظة استواء الأضداد[25] ...

إن اتساع المسافة بين الدال والمدلول وضيقها، يفسران طبيعة اللغة ومراميها. فكلما تطابق الدال مع المدلول في الاستعمال اللغوي ضاقت المسافة، وتم التواصل، وتبادل الدلالة بيسر. وكلما اتسعت الهوة بينهما، شاب عملية التواصل الغموض والإبهام. فيحجب عملية تبادل الدلائل، والربط بين الإشارة ومفاهيمها الإيحائية. ربط العنصر المادي البسيط بعناصر معنوية مركبة. ربط المعروف بالمجهول، لنعرف ونقرب البعيد[26]. ولمعرفة هذا الربط، يجب التنويه بمفهومي الدلالة الأيقونية والمجازية (الإيحائية) في علاقتها بالكون وموجوداته[27] .

- الدلالة الأيقونية الحرفية واحدية البعد والمستوى . تعبر عن الرؤية التوحيدية للإله باعتباره منفصلاً عن الكون متصلاً به في آن واحد .

- الدلالة المجازية الإيحائية متعددة الأبعاد والمستويات. هي نتاج اعتقاد تجسُد الإله العالم، وحلوله فيه، وتوحيده معه. لأن (الحركة العامة للمجاز، هي ربط العنصر المادي البسيط بعناصر معنوية مركبة، وربط ما هو معروف ومحسوس (عالم الشهادة) ، بما هو غير محسوس (عالم الغيب) . حتى يصبح غير المعروف وغير المحسوس أكثر قرباً منا نحن البشر، الذين نعيش في عالم المادة وداخل حدودها[28]

يعيش الصوفي تجربة شديدة الخصوصية، يتحد فيها بخالقه اتحاداً شهودياً، تتجلى له الذات، ومن خلالها تتكشف[29] له الحقائق والأسرار. ويعيش مراحل التحول- عبر مراحل الرحلة - المراقبة ، من مرحلة الإحسان إلى المشاهدة ، مرحلة استحضار نور الله في قلبه[30] . فتتشكل لديه رؤية جديدة للكون، ولخالقه ولمخلوقاته. هذه التجربة الروحية؛ الجمالية الوجدانية؛ تمتح كينونتها ومتعتها من الحب والجمال الإلهي. الحب والجمال المطلق هذا الحب والجمال الخفي، لا يدركه إلا المتذوقون الواصلون العارفون. لأن المعرفة معين للسعادة[31] فيجمح، ويجنح الخيال بهم، فينحتوا دلالات جديدة من الألفاظ والعبارات، ليعبروا عن أحوالهم و مواجدهم ومعارفهم التي تمكنوا منها بفضل العلم اللدني، الذي وهبه الله لهم، حسب اعتقادهم. يقول أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين في هذا المجال:(العلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً، والذي يحصل عن الإلهام، يسمى علماً لدنياً والعلم اللدني، العلم الذي لا واسطة في حصوله بين النفس، وبين الباري)[32]. هذا العلم يمتلكه السالك في رحلته عبر الذوق ؟

<u>التجربة والذوق واللغة</u>

الذوق عند المتصوفة على اختلاف مشاربهم هو أول درجات الشرب، يمتلكه السالك من خلال المراحل التي يجتازها؛ في مجاهدة النفس؛ في سعيه الدائم لبلوغ الغاية السامية من وجوده. فيكون الذوق أول درجات التلقي / الاستقبال، والسكر نتاج الشرب. فيصبح السكر أول محطة إرسال / الانفعال، وهذه الحالة تؤدي إلى محطة أعلى من الذوق، تسمى المعراج الصوفي. و(هو عودة إلى البطون، يقوم

المتصوف من خلاله بتحليل الأركان)[33]. والمراد منه رحلة استبطان داخل النفس، لاكتشاف واستلام نتائج الذوق. الشرب الذي يتجلى من خلال الرحلة ، يؤدي إلى السكر، لأنه استشراف للعالم. ترافقه حالات أخرى متقدمة في الاستبطان، والمكاشفة هي حسب الحالات مرتبة من خلال التجربة، ودرجة سمو السالك في مراتب الرحلة. وهي الشرب يليه السكر، ثم المحاضرة ، تليها المكاشفة، تليها المشاهدة. والتي من خلالها تكتمل التجربة الصوفية، وتنتج معرفتها، لغتها وخطابها. فإذا كانت (اللغة هي التي تنشئ مفاهيمنا عن العالم)[34]. فالمعراج الصوفي هو الذي ينشئ مفاهيم المتصوف عن العالم ، وتتغير هذه المفاهيم حسب درجة الذوق. ودرجة الرقي في المعراج ؟...

بعد التدرج في مراتب الرقي الروحي، يتكون لدى السالك رؤية جديدة، وموقف مغاير للمرحلة الأولى في بداية الطريق. هذه الدرجة لن يبلغها السالك إلا بعد مدة زمنية، ومجاهدة للنفس، تختلف باختلاف المريدين ، والطرق المتبعة في الوصول إلى مرحلة المكاشفة. وهي أسمى، وأرقى مرحلة يصل إليها السالك في تدرجه العرفاني الصوفي . في هذه المرحلة – مرحلة المكاشفة – الصوفي في تعبيره عن مواقفه، ومشاعره، وأفكاره، ينتج لغة صوفية مخالفة للغة المتعارف عليها في الاستعمال ، سواء أكان في الإخبار التقريري أو التعليمي أو المعرفي أو في الإبداع الأدبي . لما لها من إيحاءات ، مما يجعلها غامضة غير مفهومة . لأنها تعبر عن حالة وجدانية خاصة بالمتصوف ، لا يعرفها إلا الذي عاش نفس التجربة . يصف ابن خلدون المتصوفة في المقدمة مؤكداً أن لهذه الطائفة :(آداب مخصوصة بهم، واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم . إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة، فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه . فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه. وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا ، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات، وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة، ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي منها من ذوق إلى ذوق. وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك) . من هذه الزاوية لم يفهمهم الآخرون ؛ العامة والخاصة ؛ لغرابة هذه اللغة ، ليس في الألفاظ فحسب ، بل في دلالات الألفاظ التي تشحن بها هذه المفردات ، وهذا ما جعل خصومهم ينعتونهم بنعوت مشينة . فمنهم من اتهمهم بالكفر والزندقة ، ومنهم من اتهمهم بالجنون ومنهم من سايرهم لمحاولة معرفة سر هذه اللغة ، التي تستعمل الكلمات المعجمية المتعارف عليها ، لكنها توضع في سياقات دلالية غير عادية ، تلفها بالضبابية والغموض. و على الرغم من أن قاموسهم اللغوي هو نفسه المتعارف عليه ، فهم ينحتون دلالات جديدة للمفردات التي يستعملونها .

المتصوفة يستعملون لغة خاصة بهم . وخصوصيتها لا تكمن في إنتاج ألفاظ جديدة ، يتفقون على دلالاتها عن طريق التواضع المعرفي والوجداني ؛ وإن كان

أحيانا يلجئون إلى ذلك ؛ إلا أنهم يستعملون لغة القوم الذين يعيشون بين ظهرانيهم،لأنهم لا يستطيعون الخروج عن الدائرة اللغوية التي شكلتهم من الجانب العقلي والوجداني . ويدخلون في صراع معها ، لنزع هويتها المؤسساتية المتجلية في قوانينها الإلزامية ، التي تضمن التواصل بين الأفراد. فيفرغونها من حمولتها الجماعية[35]، ويشحنونها بإيحاءات مفارقة لدلالاتها ، وبذلك يصبغون عليها هويتهم . فيذوتونها لتنسجم مع تعبيراتهم المميزة لهم عن جماعتهم اللغوية ؟ لغة لمتصوفة لغة المفارقة ، إن على مستوى اللفظ أو على مستوى منطق الفكر في الإفراد والتركيب . هذا الوضع الخاص ترك المتعامل مع هذه اللغة في شك وحيرة لإدراك مراميها ، وفك ألغازها . لأنها تحيل إلى أكثر من دلالة ، من الدلالة الوجودية إلى الدلالة اللغوية . فالدال المعروف الدلالة ، مبهم غامض ، إن حملته على المعنى المتداول ، لابتعدت عن كنهه . فلن تفهمه ، وإن حملته على المعنى المجازي غرقت في التأويل ، وجانبك الصواب في فهم مراميه . يرجع هذا الإشكال إلى اختلاف المجازات التي أفرزتها اختلافات الرؤى والرؤيا لدى المتصوفة وغيرهم . لذا شاعت عبارة النفري محمد بن عبد الجبار بن الحسن ت .366هـ في الفكر الصوفي في قوله:(كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة) . وأكدها بعده ابن عربي الشيخ الأكبر ت 638 ه في قوله:(قوالب ألفاظ الكلمات لا تحل عبارة معاني الكلمات).ونفس المعنى أكده ابن الفارض ت. 735 هـ في قوله:

سأجلو إشارات عليك خفية """ بها كعبارات لديك جلية

اللغة الصوفية تتجلى في حالتين: لغة الكلام المنطوق أو المكتوب، ولغة الإيماء (الشطح حركات وأصوات) وكل واحدة تحمل وجهين دلاليين أو أكثر . دلالة ظاهرة ، ودلالة خفية تُحمل على المجاز ، لأنها نتاج الذوق والكشف الذي حقائقه لا تستقيم مع المعاني المتداولة في اللغة . كما لا تستقيم مع الشرع وعقائده ؟ لذا اتجهوا إلى الإيغال في التستر. لأن لغتهم تبوح بالأسرار الإلهية ، التي لا يطيقها عقول العامة ، ولا المؤسسة الدينية ونلمس هذا النزوع مبكراً في شعر زين العابدين حفيد علي بن أبي طالب رضي الله عنهما :

يا رب جوهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت من يعبد الوثنا

ولا استحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وقال الشيخ أبو مدين التلمساني:

وفي السر أسرار دقاق لطيفة تراق دمانا جهرة لو بحنا بها[36]

إن انتقال المتصوفة من مرحلة معرفية وجدانية ذوقية إلى أخرى ، يجعل إدراكهم للواقع يتغير ، وبذا تتغير مجازاتهم باستبطان هذه التجربة في تفاعلهم مع

الواقع الحياتي الذي يحيط بهم ، ويصبح لهم منطق آخر يتفاعلون به مع هذا الواقع الروحاني الغيبي الجديد الذي وصلوه عبر المجاهدات والعبادات ؟ وباستبطان الوضع الجديد – التجربة الروحية والتجربة الواقعية - يكون بَوْحَهُ[37] عن هذا الوضع الجديد أيضاً ...

اللغة الصوفية لغة فاتنة ، قاتلة ، شعرية تبهرنا بإحساس جديد بالأشياء لفصلها المستمر بين الدال والمدلول الصوفي شاعر اللغة ، لأنه يدخل في جدال معها من أجل نزع هويتها الجماعية بقوانينها الإلزامية ، التي تحقق التواصل بين أفراد الجماعة اللغوية ، ويطبعها بهويته الخاصة . يفرغها من حمولتها المتواضع عليها . ويشحنها بحمولة دلالية عاطفية روحية منبثقة من الذوق العرفاني ، الذي يعبر عن التجربة الصوفية بكل زخمها المعرفي والفلسفي . فإذا كانت اللغة الشعرية تعبير خارق عن عالم عادي في التركيب والدلالة . فإن اللغة الصوفية تعبير خارق عن عالم خارق. فهي تشمل خصائص اللغة الشعرية التي أساسها الخرق اللغوي ، وتزيد عنها بخرق مرجعي تنفرد به[38] . لأن اللغة الصوفية تعتمد الخرق المزدوج . فتستوعب اللغة الشعرية ، التي تعتمد الخرق الأحادي ، وتتجاوزها لخرق المرجع . هي في بحث دائم في تجاوز المتعارف عليه . لأنها تعبر عن تجربة متفردة ، متميزة ، شديدة الخصوصية . لذا نراها ترفض (الربط القار بين عناصر اللغة ، سواء على مستوى الأصوات أو الصرف أو التركيب أو المعجم . وتلجأ إلى البحث عن إمكانيات جديدة قصد إفراغ اللغة من محتواها القديم لتعبر عن الحالة الحية الخاصة)[39]. فالصوفي لا يعبر بلغة العقل والمنطق المعتاد ، بل بلغة المشاعر الخفية ، الناجمة عن معاناة عميقة ، التوتر والقلق المستمر الذي يكابده السالك في طريقه إلى مرحلة المشاهدة .مرحلة امتلاك علم التجلي ، الذي يعده ابن عربي من أرقى العلوم[40]. وفي معراج الرقي الروحي ، يفرز لغة خاصة ، لها منطق خاص . فيعبر عن معان ومشاهد وإحساسات نفسية لا عهد للغة بها ، ولا بالتعبير عنها[41]

قال أحد المتصوفة في وصف حالهم :

إذا نطقوا أعجزك مرمى رموزهم وإن سكتوا هيهات منك اتصاله[42]

اللغة التي ينتجها المتصوفة في خطاباتهم وخاصة الأدبية منها، لغة خاصة بهم ، لأنهم يعيشون تجربة متفردة شديدة الخصوصية في جانبها الروحاني ، غارقة في التفسير الغيبي ، الذي لما يصل إليه الإنسان العادي ، الذي يعيش حياته كما هي متزنة . فلغتهم تحمل خلف معانيها المعجمية أسراراً غيبية ، تحتاج إلى كشف وتأويل، يتجلى في الإشراقة التي تنقدح في القلب-حسب زعمهم-. فهي رموز دلالاتها لا توجد في التركيب ، بل توجد في الكلمة المفردة ، بل في الحرف الواحد[43]. فالخمر والحب والجوع ... مفردات عادية من المعجم اللغوي العربي ، وقد تأخذ أبعاداً مجازية في الاستعمال الشعري (الأدبي عموماً) حسب السياقات الموظفة فيها، لكنها لن ترقى إلى الدلالة التي يعطيها لها الصوفي عند التلفظ بها .؟ وهذا ما يجعل التواصل بين المتصوفة ، والآخرين ، يعترضه حاجز الفهم ، الذي

ينجم عنه المفاصلة في التعامل والمواقف.وفي تفسير الظواهر والمظاهر التي يمارسونها بطمأنينة غريبة ؟

إن مفردة الخمر لها معنى معجمي متعارف عليه ، ولها تأثير في عقل الإنسان عند شربها ، يسمى السكر أي ذهاب فطنة العقل في ضبط أفعال المرء ، وردود أفعاله في تعامله مع الغير ومع ذاته . لكنها عند المتصوفة ، تعني شيءٌ آخر. وإن كانت المفردة هي ، لكن دلالاتها تختلف . فهم حولوها من المدلول المدنس إلى المدلول المقدس ؟ فكيف يفسر ذلك . فالسكر والصحو لهما معنى واحد في المنظور الصوفي ، في كشف أثر الحالة في التعامل مع الخالق الله يقول الحلاج:

كفاك بأن السكر أوجد كربتي فكيف بحال السكر، والسكر أجدر

فحالاك لي حالان: صحو وسكرة فلا زلت في حال أصحو وأسكر[44]

السكر غياب وفناء وتحول ومشاهدة واستبدال ما هو حسي بما هو باطني ، فالمتكلم هنا يعيش لحظة استلاب لا يطرب ، ولا يحس بوجوده إلا من خلال حالة السكر والصحو...

بقول ابن الفارض[45] في وصف الخمر وإثرها

سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

تقدم كل الكائنات وجودها قديماً ، ولا شكل هناك ولا رسم

صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ونور ولا نار ، وروح ولا جسم

إلى أن يقول

وفي سكرة منها ولو عمر ساعة ترى الدهر عبداً طائعاً لك والحكم

فالخمر هنا له دلالة خاصة ، لا علاقة لها بالدلالة المعجمية المتعارف عليها في معاجم اللغة العربية . لا من حيث الوجود، ولا من حيث الماهية ولا الأثر . فهي شيء خارق للمعتاد لا يدركه إلا العارفون ، الواصلون في الترقي في مراتب العلم اللدني . وإن حملتها على المعنى المتعارف عليه في اللغة ، لابتعدت كثيرا ، وأخذ بك الشطط في التأويل والتفسير. وبعدت عليك مراميهم .

الجوع كلمة عربية ، تحمل دلالة اقتصادية ، وهي مصطلح سياسي ، ويمكن تحميلها دلالات مجازية في لغة الأدب . أما عند المتصوفة ، هي مصطلح له أركانه الخاصة ، وأسلوبه وغايته ، لأنهم يتعاملون مع نتيجة الكلمة يوجهونها إلى مجال آخر ، ويلبسونها إيحاءات دلالية متوترة ، تعبر عن الحالة الوجدانية التي يعيشونها ، ويعبرون عنها بصدق .فإذا كان مفهوم الجوع هو ألم يعتري بطن

الجائع ، فيدفعه إلى تناول الطعام ، فإن مفهوم الجوع عندهم إشارة شديدة التميز ، لما لها من ارتباط بالرياضة الروحية ، التي يمارسها الصوفي في رحلته . فلها صلة مباشرة بالوجدان ، وبالحالة الشعورية الباطنية التي يعيشها ، ويتمتع بها . فتحمل أكثر من دلالة . فهو عندهم عبادة ووسيلة للتقرب من الله ، هو أحد أركان المجاهدة . له ثمار الوصول . هو من ينابيع الحكمة ، ووسيلة لصفاء الروح في معراجها .هو شفافية وجدانية ، وشفاء من الأسقام ، وارتقاء معرفي ، و روقي روحي ، هو سر الحياة . فنلاحظ من الوهلة الأولى أن الاختلاف جلي في معنى الكلمة ، مفارق للاستعمال المتواضع عليه .

نفس الوجهة نلمسها في معجمهم . فالحب والرؤية والكشف والحلول والباطن...إشارات لغوية لها مرامي غير المتعارف عليها عند غيرهم . فمفهوم الحب يتخذ في فلسفة الخطاب الصوفية دلالات عميقة حيث أنه لذة ،لا لذة قبلها ، ولا بعدها . فالمتصوفة يرون أن المحبة مقامها شريف ، وهي أصل الوجود[46]، وترتبط بالقبول والرضا ورفع الكلفة ، فيعرفها من قامت به ومن كانت صفته ، ولا يعرف ما هي، ولا يفكر في وجودها ، ومن حد الحب ما عرفه ، ومن لم يذقه شربا ما عرفه ، ومن قال رويت منه ما عرفه ، والحب درجات ومراتب : إلهي وروحاني وطبيعي، لذا قال الشيخ الأكبر بن عربي في ديوانه ترجمان الأشواق:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب ديني وإيماني.

وهذا البوح نراه مبكراً عند البسطامي ، إذ يقول مخاطباً الآخر : (مساكين أخذوا علمهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت)[47] . وتتجسد هذه الصورة المثالية للحب في قول رابعة العدوية في إحدى مناجاتها للواحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد في نفحات ربانية :

أحبك حبين حب الهوى وحبًا لأنك أهلٌ لذاكا

فأمَّا الذي هو حبُّ الهوى فشُغلِي بذكرك عمَّن سواكا

وأمَّا الذي أنت أهلٌ له فكشفُك لي الحُجبَ حتَّى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا...

فكلمة الحب أفرغت من محتواها الدلالي ، وانزلقت دلالتها إلى معاني جديدة ، كشفتها رابعة العدوية في هذه المقطوعة .

- فحب الهوى ، ليس العشق ولا الغرام ولا الوجد ولا الهيام بالمحبوب الذي يحمل معاني حسية.. بل هو الحب الذي ليس ناجماً عن اتصال جسدي ، بل عن اتصال روحي ، عن طريق استحضار المحبوب الذي هو الله جلت قدرته ، بالذكر ،

والتوحيد والتسبيح ، والتكبير ، والحمد ، والشكر ، والثناء...فهذه مدلولات لا عهد لها بمفهوم الحب المتداول عند الشعراء ، ولا العامة والخاصة من الناس ؟

- وحب الأهلية ، مفهوم آخر يضاف إلى مفهوم الحب .يتجلى في كشف الحجب المستورة من الأمور الغيبية التي لا يحتملها عقل الإنسان العادي . بتمكينه من العلم اللدني ، الذي مكن القائلة من هذا التخريج الجديد لملفوظ قديم . ونقله من التعبير عن التجربة المحسوسة إلى التعبير عن التجربة الروحية الغارقة في الإيهام، والإبهام ، والإلغاز، والتجريد... فكان الحب ، حب الهوى ، وحب الأهلية المتجلي في كشف الحجب ..؟ وهو حلول ، واتحاد ، وتسام ، وخلوة ، ولذة . رقي تقرب صفاء .وفناء..

يقول ابن الفارض[48]:مخلدا المحبوب بألمه :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مُضنى به وله عقل

وعش خاليا فالحب راحته عنا وأوله سقم وآخره قتل

ولكن لدى الموت فيه صبابة حياة لمن اهوي على بها فضل

وبقول أيضا[49]:

وموتي بها وجدا حياة هنيئة وإن لم أمت في الحب عشت بغصة

فيا مهجتي ذوبي جوى وصبابة ويا لوعتي كوني كذلك مذيبتي

ويقول البسطامي:[50]

أريدك لا أريدك للثواب ولكن أريدك للعقاب

وكل مآربي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

من خلا هذه الإطلالة على مرامي لغة هذه الفئة الاجتماعية ندرك أن الخطاب الصوفي هو خطاب مرموز ومُلغز، يحتاج المتعامل معه إلى العديد من الآليات اللغوية ، والعلمية لفك شفراته، وفتح مغالقه. ولعل هذا هو ما أفرز ردود فعل متباينة تجاهه ...

هوامش البحث

1- محمد يعيش : شعرية الخطاب الصوفي ص: 90
2- سحر سامي :شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي ط 20005 الهيئة المصرية العامة للكتاب ص79
3- أبو حامد الغزالي الإملاء في إشكالات الأحياء بيروت ص16 والتجلي نوع من المعرفة المحتجبة عن الإنسان العادي يدركها المتصوف
4- فريد الدين العطار : منطق الطير دراسة وترجمة بديع محمد جمعة دار الأندلس ط 2002 بيرون ص82
5- سحر سامي :شعرية النص الصوفي. م س ص 78 نقلا عن مرسيليا إلياد : المقدس والدنيوي ت / نهاد خياطة ط1 دمشق 1987ص63
6- ديوان الحلاج، تحقيق كامل مصطفى الشيبي بيروت بغداد 1973 . ص 11
7- علي الديري :مجازات بها نرى .
8 - سحر سامي :شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية امحي الدين بن عربي ط 20005 الهيئة المصرية العامة للكتاب ص55
9- كمال الدين القاشاني : اصطلاحات الصوفية تحقيق وتعليق محمد كمال طبعة الهيئة العامة للكتاب مصر 2008 من المقدمة ص 6
10- سحر سامي شعرية النص الصوفي ص59
11- محمد يعيش :شعرية الخطاب الصوفي . ص: 7
12- عبارة لأبي نصر السراج الطوسي في كتابه " اللمع في التصوف " ت عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ط 1960
13- ميشال زكريا: الألسنية علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات -بيروت 1983 ص180
14- وليم راي : المعنى الأدبي، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز، دار المأمون – بغداد 1987 ص 25
15 -المعنى الحرفي ، أو الحقيقي أو التقريري ، أو المعجمي أو الأيقوني أو المركزي . في الثقافة الغربية تطلق كلمة الدلالة التقريرية أي الإحالة على مصطلح dénotation والدلالة الإيحائية على مصطلح connotation
16- بول ريكور :نظرية التأويل تعريب سعيد الغانمي .الطبعة الثانية المركز الثقافي العربي بيروت 2006 ص:39
17 - يوري لوتمان : سيمياء الكون ص: 5317
18 - عاطف جودة نصر : شعر عمر بن الفارض . دراسة في الشعر الصوفي ص :143

[1]19- علي الخطيب :اتجاهات الأدب الصوفي ص:11
20 - محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري :الأعمال الصوفية ط 2007 ألمانيا ص:19
21- عبد المنعم الحفني: معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة – بيروت مادة ذوق.
22 - يوري لوتمان : سيمياء الكون ص:49
23 - م س : ص: 55/54
24 - المركز والهامش يفصل بينهما حدود ، حدود تفصل بين الأحياء والأموات كما يمكن أن تكون هناك حدود اجتماعية ، ثقافية ، أخلاقية ، وطنية عقائدية تفصل بين الفئات الاجتماعية والطبقات والمجتمعات في اللغة الواحدة... يراجع سيمياء الكون ص:8

[1]25 - النفري :م س ص 29
[1] 26- عبد الوهاب المسيري : اللغة والمجاز ص:17
[1] 27- م .س : ص: 9/8
[1] 28- عبد الوهاب المسيري :اللغة والمجاز ص:17
29- ""علم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى ينضح له – المتصوف البالغ الواصل - جلية الحق ...اتضاحا يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه "" انظر إحياء علوم الدين 20/1 لأبي حامد الغزالي، والتزكية بين أهل السنة والصوفية جمع وترتيب أحمد فريد
30 - يتجلى التحول بعد المجاهدات والمواجد عبر الصبر على الجوع والعبادات والصمت إلا بالذكر يترقى السالك إلى الفناء في ذات الله ومحبته تتحول من مدرك عقلي إلى تذوق روحي عرفاني أي من مدرك إلى حال .وفي الرحلة لا يتناهى السالك في درجات الترقي والقرب من الله ، وكلما ارتقى طلب درجة ثانية
31 - تيري إغلتون : معنى الحياة : تعريب عهد علي ديب دمشق ط1 2010 ص:35
32- أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين نقلا عن عبد الرحمن دمشقية :أبو حامد الغزالي والتصوف طبعة دار طيبة
33- .سعاد الحكيم : المعجم الصوفي مادة (المعراج الصوفي).
34 -- مجموعة مؤلفين : معرفة الآخر، المركز الثقافي القومي – بيروت 1990 ص139. ..
35- محمد يعيش :شعرية الخطاب الصوفي ص 88
- طبعة 2004 الجزائر ص:86 ANEP- التهامي غيتاوي :الدرر النفيسة منشورات 36
37 - البوح يقصد به هنا كل ما يصدر عن المتصوف ، أي ما يعبر به عن هذه التجربة ، سواء أكان التعبير كلاماً منطوقا ، أو سلوكاً ممارساً أو كتابة مخطوطة ...